

أغاني الشعب

إسلى يا مصر . نشيد الاستقلال . البحر المنجر



« لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافى فى تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشيد وطنى أو طائفى من الذبوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافى ؛ فهو بذلك خليف أن نسميه « شاعر الأناشيد »

وقد ولع منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية ، يفتن فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها ؛ ففى سنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دى عجمجدها قلبى ويدعو لها فى
وذاغت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى دروس
المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية .
وجاء فى هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات : « قد تمت القطع التى نظمت
للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل
هو على نظم غيرها مما هو أرق ، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذى لم يسلكه
قبله أحد ؛ فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان مصر أن يأخذوا بيده
فى هذا المشروع ، حتى لا يفيض ما بقى فى ذلك الينبوع ^(١) ... »

(١) شرح الرافى الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما ، نسب الفرع إلى أخيه
المرحوم عبد كامل الرافى ، وهو باب من الهياكل التى كان يدعوها لنفسه فى أول عهد
بالشعر . ومن هذا يرى القارىء حديث الرافى عن نفسه فى هذه العبارة بضمير الغائب ،
على أنها من قوله هو نفسه .

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني ، ينشر منها طرفة رائحة في كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامي ، وغيرها ، وأذاع في الصحف كثيراً مما نظم من « أغاني الشعب »

وعرف الرافعي في نفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية في باب هو من الشعر في ذلك العصر من صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغاني الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عرقية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيتها ؛ وقد جرى الرافعي في هذا الميدان شوطاً بعيداً ، وأبجز طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها وما يزال سائرها في طي الكتان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر بعد .

وإنك لترى الرافعي في هذه الأغاني والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره ، فتؤمن غير مفضل أن الرافعي هبة الزمان للعربية لتزيد فيها هذا الفن الشعري البديع الذي تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم في الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزل ... » ثم لم يقل أحد من بعده شعراً يترنم به في الحرب ، أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعي ...

ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعي ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغزل بفلانة وفلانة من حباته الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد ...

7 وأشهر أناشيده : « اسلمى يا مصر » و « إلى الملا إلى الملا بني الوطن » و « حماة الحمى ... » ولكل نشيد تاريخ :

نهضت الأمة نهضتها الرائعة في سنة ١٩١٩ ، ودوى صوت الشعب هاتفاً : إلى المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس

من داخلها، فإذا الأمة صوت واحد ، على رأى واحد، إلى هدف واحد ؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الوجود في وجوده يتمثل في كل مصرى ، ويستعلن على كل لسان في مصر .

واجتمع رأى طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيتها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصرى ، تجتمع عندها خواطر نفسه ، وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ، وبيانها من معاني نفسه .

وتلفت الناس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذى يؤملون أن يتحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وسمت لجنة النشيد جائزة وضربت أجلاً ...

وتبارى الشعراء في الافتتان والإجادة ، وتقدم كل شاعر ببضاعته ، وتقدم الرافى فيمن تقدم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرها بين شعراء العصر لم يتقدما بشئ إلى لجنة النشيد : هما شوق أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل . أما حافظ فلأنه من المحكمين في اختيار النشيد ، وأما شوق ... فن يدرى ؟

وكان على رأس « لجنة النشيد » الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفرولى باشا ، فكأنما عز عليه أن ينتهى الأجل المضروب فيتقدم الرافى ، ويتقدم الهراوى ، ويتقدم عبد الرحمن صدقى ، ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، ومن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوق وحافظ .

ونشأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوها على الاشتراك في المباراة ؛ فأما حافظ فأصر وأبى ، وأما شوق ... يرحمه الله .. لقد كان حريصاً على أن يقول الناس في كل مناسبة : لقد قال شوق .. ولكن ماذا يقول في ذلك اليوم ؟

وكان لشوق نشيد أنشأه منذ عهد لتفتتح به (فرقة عكاشة) موسمها التمثيلى ؛ فلذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟
(وتقدم شوق إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بنى مصر مكانكمو تهياً فهيا مهّدوا للمجد هياً
وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدّت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا
أن جاءهم الجواب الصريح ؛ فمرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصاً على أن يكون
النشيد المختار من نظم شوقي ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ،
وهل كان لهم أن يطعنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية ؟
وكان الرافى على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات في (الأخبار) ،
وللأخبار يومئذ مذهبها السياسى ، وكانت الأول هو المرحوم أمين بك الرافى ؛
انسحب الرافى نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة
صاحبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقي وأنصار شوقي ، وقال فى نشيده
ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازنى والمقادى (الديوان)
وكتب غير المازنى والمقادى ؛ وشوقي رحمه الله رجل كان على فضله ومكاته
وعلى منزلته فى الشعر ، ضيق الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين
الرافى شيء من يومئذ ، إن لم يكن من قبل يوم نشر الرافى مقاله فى (الثريا)
عن شعراء مصر فى سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحداً
من أدباء العربية لم ينصف شوقي بعد موته ولم يكتب عنه مثل ما كتب الرافى عن
شوقي فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفى أحسبه
نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين .

ومضت لجنة المباراة فى طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافى فى ثورته ؛
ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ، لتنظر
فى نشيد الرافى وحده

وأصدرت اللجنة الأخصيلة حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقي ، وفاز من
بعده المراهوى وعبد الرحمن صدق ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافى هو

النشيد القومي المصري ... وسبقت بين الفنانين جائزة ، ليصنعوا لحناً لنشيد الراحل :
إلى العلا ، إلى العلا ، بني الوطن ، إلى العلا ، كل فتاة وفتى
وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !
ليس من همي هنا أن أوازن بين نشيدي شوقي والراحل ؛ فقد مات نشيد
الراحل (إلى العلا ...) بعد ما سبقه نشيد شوقي إلى الموت بمشر سنوات ،
ولم تجدد كل المحاولات في بثه ونشره ... وإن كان لي أن أقول شيئاً هنا
في الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الراحل
واحتفائهم به في كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقي

لقد سمعت نشيد الراحل أول ما سمعته في حفل رسمي أقيم لإذاعته بطنطا
في سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أنني رأيت نشيداً احتفل له
الناس ما احتفلوا لنشيد الراحل يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بستين وجر
عليه النسيان أذياه ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يمييه ، ولكننا
نعيش في شعب أكبر فضائله أن ينسى ... وعند الله الجزاء ... !

اسلمى يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا في سعد زغلول ؛ فهو المصري
الذى لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنساناً تراه العين لما وجدوا
إلا صورته ، ولو سألوا : من الرجل الذى يقول أنا الأمة صادقاً لما وجدوا غيره ...
وتطورت فكرة النشيد القومي عند الراحل ، فرأى رؤياه في منامه ... فلما أصبح
ألف نشيده « اسلمى يا مصر » وما كان هم الراحل عند ما ألفه أن يجعله نشيداً
قومياً ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الراحل
في خطابه إلى سعد في جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعدادهم ،

ويبقى اسمك الجليل مع كل مصرى على الدهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده
» ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقربون
به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيل
يديك ، ويعلمون في كل زمن من شرح هذا الاسم الكبير أنه الرجل الذى خط
قلم الأزل بيده كتاب نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه
نبي الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافى لم يكن يعنى بإنشاء نشيده « اسلمى يا مصر » أن يجعله
نشيداً قومياً ، فإنه لمطمئن إلى أن نشيده « إلى العلا .. » ماض فى طريقه إلى هذا الهدف ؛
إنما كان يعنى أن يضع فى هذا النشيد صوت سعد كما تصورت حقيقته فى نفسه ؛
لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء
والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذ نشيداً قومياً ليجعلوا صوت سعد فى هذا النشيد
صوت البلاد ، وليتخذوا مافيه من معانى المجد شعاراً لكل مصرى ، أن كان صوت
سعد يومئذ هو صوت كل مصرى

وتألفت اللجان فى مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط
نغمته ورسم لحنه ؛ فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار
صفر على ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن اللحن الثانى أذيع
وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد أن صار نشيدها الرسمى

نشيد الاستقلال

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد « اسلمى يا مصر » هو نشيد
مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة
العامة لتأليف نشيد قومى يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة
فى هذه الفترة كان الرافى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد ، إجابة لرغبة تقدم
بها إليه شبان الوفد؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد؛

حماة الحمى ، يا حماة الحمى هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في المروق الدما نموت ، نموت ، وبحيا الوطن
كما تقدم بنشيدته الآخر : « اسلمى يا مصر » ؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة
النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض
لرأى اللجنة وحكمها فى هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من التقدير الأدبى ليس
من قصدى التعرض له فى هذا المقال ؛ فان للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ،
يوم نُنسى الأحقاد ونمحي العدوات

ليس ما ذكرت هو كل جهد الرافى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق
أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديراً به ؛ فما أستطيع
أن أحصى كل ما أنشأ الرافى فى هذا الباب ، وحسبى أن أذكر بنشيدته الخالد
الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار (الشبان المسلمين) ، فهنا ، فى هذا النشيد
يعرف الرافى الشاعر المسلم المجاهد الذى وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب
أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » ، و « نشيد الطلبة » الذى أنشأه
ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا — فذلك فن من البيان له فصل
بمنوانه فى تاريخ الأدب العربى

البحر المنفجر

فى أناشيد الرافى عامة ، تعرف له طابعا وروحا ونفمة هى سر نجاحه فيما ألف
من أناشيد ، ويعمل فى أناشيدته الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة فى سبك
اللفظ ولحن القول كما ولو أنك سمته مرة وهو فى خلوته الشعرية يحاول شيئا من
هذه الأناشيد لسمعت لحنًا له رنين يشترك فيه صوت الرافى ، ونقر أصابعه
على المكتب وخفق نمله على أرض المكان ؛ وعلى أن الرافى كان أصم لا يسمع
قصص المدافع ، فإنه كان لا يستوى له النظم إلا فى مثل هذه الحال . واسألوا

صديقنا الأستاذ مصطفى درويش مفتش التحقيقات بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم سحب الرافى من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف فى القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الأنسة ماري قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافى يوم جلس إليها وهى تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ويوم جلست إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « اسلمى يا مصر » وهو يسمعها بميئته تقبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بمصاه ورجليه وينفخ شذقيه ؛ وفى أذنيه وقر ثقيل ... !

هذه النغمة التى كانت تتمثل للرافى فى سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد ، كان لها أثرها الفنى فى عمله ، وهى هى التى كانت تشغره أحياناً بالمعجز عن أن يجد فى موازين الشعر العربى النغمة التى كان يريدتها فى أناشيده كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْدًا مَجْدًا مَدْرَسَى مَدْرَسَى مَجْدًا مَجْدًا
هِنَ عَمَى عَن تَرْيِيتَى مَدْرَسَى مَجْدًا مَجْدًا

لم يجد له نغمة تلاعبه فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذى يزنه به قارنه ، وسماه : « طبل الحرب » ولكن صاحب المقطم أشار عليه أن يسميه « البحر المتفجر » . وتفعيلاته « فَعْلٌ ، فَعْلٌ ، فَعْلٌ » مكررة فى كل شطر ، مع بعض علل فى الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته .

هذا هو الرافى شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان : « أغاني الشعب » لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربى كان يعيش فى هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الألفية ، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جبل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !